# العقلانيَّـــة النقديـــَّـة والتّقدم الحضاريّ عند المسلمين والعرب

د . مصطفـى المزلـوط ـ قسم الفلسفة كلية التربية ـ يفرن ـ جامعة الزنتـــان

**الملخـــص :**

تهدف هـــذه الدراســـة إلـــى بيان مفهوم العقلانيـــة في الفكر الإسلامـــي والعربي المعاصر، حتى يتسنى هذا المجتمع الرقـــي والتطور والتقدم الحضاري، وخاصة في ميدان العلم والمعرفة معا ، وتمثل العقلانيـــة أحد الدوافع والأسباب الرئيسية للوصول إلى بناء متكامل للحضارة الإسلامية المستقبلية ، لذا كان هذا البحث يتمحـــور حول العقلانيـــة النقدية التي ينبغي أن يكون عليها الفكر الإسلامي المعاصر في شتى أنواع معارفـــه ، عقلانية جديدة يستطيع العقل الإسلامي أن يكون فاعلاً من خلالها في كافة ميادينه المختلفة عند دراسته للفلسفات الأخـــرى السابقة له ، وخاصة اليونانية منها ، وبالتالي يصبح واجب علينا أن نحدّث أنفسنا ونوسع أدوات البحث والفهم الصحيح من أجل الابتكار والإنتاج المعرفي والعلمي.

## المُقدّمـــــة:

إن من الأسباب الكامنة التي دعت الباحث للقيام ببحثه في موضوع العقلانية هو أننا اليوم بحاجة إلى إسهام جديد بفكرنا نحن المسلمون على غرار ما كان يقوم به المسلمون الأوائل عندما انطلقوا في بناء معارفهم السابقة في القرن الثانـــي للهجرة ، ولكن لا ندعوا من خلال بحثنا هذا إلى التقليد والتكـــرار ؛ وانما هاجسنا هو تطـــوير الفكر الإسلامي حتى يواكب معطيات العلم المعاصر ، بهدف فهم الواقع الذي نعيشه ومعرفته والتغلب على صعابه التي تعترض الحياة بأشكالها و أنواعها المختلفة ، ومن هذا المنطلق حاول الباحث تجديد موضوع العقلانية على الصعيد الثقافي العربي حتى تتحدد من وراء ذلك هويتنا وحقيقتنا .

## أهمية الدّراســـــة:

تتحدد في المعرفة النقديـــة العقلانية عند المسلمين والعرب وإلى أي حد وصل عندهم هذا الجانب حتى نستطيع تقيم أنفسنا مقارنة بغيرنا من المجتمعات ذات الـــرقي

والتقدم الحضاري في العالم كما تتبنى الدراســـة تفكيك ومعرفة الجزئيات التي تتعلق بالموضوع للوصول إلى الفهم الصحيح لكل ما يتعلق بالموضوع في جوانبه المختلفة .

**مشـــــكلة الدّراســـــة :**

يُمكن بلورة إشكالية هذه الدراسة في إطار الســـــؤال التالي : ما هي الأسباب التي تستدعي التفكير في دراســـة العقلانية النقدية وأثـــرها في التقدم الحضاري عند المسلمين؟

**فرضيـــــــــة الدراســـــة :**

يمكن تلخيص فرضية الدراسة في الآتـــي : ما هو السبب أو الأسباب التي جعلت المسلمين والعرب لا يواكبون ما توصل إليه العالم بصفة عامة من خلال تقدم هذا العالم تقنينا أو حضاريا؟ ولماذا هذا التدني الذي وقع فيه المسلمون والعرب والتأخر؟ وتـــزداد التساؤلات عندما نخصص كل جانب سواء كان علمي وثقافي أو حضاري أو اقتصادي إلـــخ.

**المنـهجيـــــة :**

استخدم الباحث المنهج التحليلي النقدي المقارن أساسا لها في التواصل لفهم المعرفة العربية الإسلامية قديما وحديثا.

**تقسيمات الدراســـــة:**

تم تقسيم الدراسة إلى ست مباحث كانت على النحو التالي : المبحث الأول: نحو عقلانية جديدة في الفكر الإسلامي المعاصر، والمبحث الثاني : معنى نقد التراث العلمي، والمبحث الثالث : التراث الإسلامي والتقدم العلمي، والمبحث الرابع: علاقة المفاهيم الفلسفة الإسلامية بالعلوم المعاصرة ، والمبحث الخامس: أهمية البحث العلمي ، والمبحث السادس: الحاجة إلى تطوير التعليم الجامعي.

**المبحث الأول ـ نحـــــو عقلانية جديدة في الفكر الإسلامـي المعاصـــر:**

بدأ عصر النهضة الإسلامية مع أوائل القرن الثاني للهجرة، فانطلق المسلمون إلى آفاق الفلسفة والعلوم وكان ذلك نتيجة إلى ما أحدثه العباسيون في مختلف المجالات من سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية ، وقد بدأت تباشير هذه النهضة تطفو على السطح الأمـــر الذي دفع إلى التفكير في ظهور الاتجاه العقلي والتركيز على العقلانية في الإسلام .

ومما تجدر الإشارة إليه فأننا حينما نوجه الحديث إلى ما يسمى ( بالعقلانية النقديـــة ) ، فالغرض هو كشف القناع عن مفهوم العقل النقدي الإسلامـــي ؛ لأنه في حقيقة الأمر لا

يستطيع المسلمون إقامة حضارة ما ويقصد بذلك الحضارة الإسلامية ، فقد كان في القرن الرابع الهجري ـ العاشر الميلادي للعقل الإسلامي فاعليته من حيث النقد الفلسفي والعلمي ، عــلاوة على ذلك ما حدث في ذلك الوقت من قمــة في المناظرات العقلية والعلمية داخل الثقافة الإسلامية ، ومن هنا نستطيع القول بأن العقل الإسلامي هــو ذلك الخطاب الكلّي في ميادينه، ونفي بذلك العقل الذي يتمحور حول الدّين الإسلامـــي بتشريعاته فقط ؛ " بل هو كل نشاط العقول التي عاشت منذ مجيء الإسلام وطيلة فترة ازدهاره ـ سواء في المشرق أو المغرب ـ أو ما بعدها إلى مطلع النهضة العربية الحديثة" (1).

ومما يؤكد أن العقل هو خطاب كلي وليس جزئي ، وبمعنى آخـــر : فإنه ليس أحادي الطرف ؛ بل هو عام في خطابه داخل أي حقل من حقول المعرفة ، إذ هو " الخطاب ، وبمجرد ما يكون خطابا عاما ، يكون فاعليته تلقائية كلية" (2).

وبناء على ما سبق فإن ( العقلانيـــــة ) هي النشاط الفــكري الكلي الذي يمكن أن نمارســـه من بيننا وبين أنفسنا وبالعالم الذي نعيش فيه ، والذي من خلاله نستطيع تغيير ثقافتنا وتغيير العالم الذي نعيشه ، وبعبارة أخرى هذه العقلانية هي الاستراتيجية الذي نتعامل بها مع الذات ومع العالم المحيط بنا ، وهذا القول السابق في اعتقادي ما دفع الباحث إلى القيام بدراســـته ؛ لأنه في واقع الأمـــر الشـــيء الذي افتقدته ثقافتنا العربية والإسلامية المعاصرة ، وهو ما سوف نتعرض إليه في ثنايا بحثنا المتواضع ، إن تذبذب الثقافة العربية والإسلامية منذ النصف الأول من القرن الماضي في تحركه إلى الامام والخلف في آن واحد في علاقتها بالثقافة الغربية: ( من التطورات الحضارية والثقافية العلمية التي شهدها الغرب ، ومن ثم العالم كله جعلت للغرب حضوراً قويا في حياتنا الثقافية والفكرية ، وهو حضور متواصل ليس في قبولنا له فقط بل وفي رفضنا له- أيضا- ) (3) ، كما نلاحظ في الآونة الأخيرة توجيه أنظار بعض المفكرين العرب المتأثرين بالثقافة الغربية ، وخاصة بعد اطلاعهم أو تشـــربهم لفلسفات الغرب والثقافة العلمية المعاصرة ، وفي الوقت ذاته لنا في هذا الأمر مؤشر على أن هؤلاء المفكرين العرب على اتصال مباشـــر ووثيق بالثقافة الفلسفية والعلمية الجديدة والمعاصرة ، كما يوحى لنا في الوقت نفســـه بأنهم لم يفيدوا من تراثنا العلمي الكبير والزخـــم الهائل . بمعنى آخـــــر: لم يستخدموا الأفكار والمفاهيـــم العلمية والفلســـفية لفهم وتفسـير وتحليل المشـــكلات النظرية والعلمية المعاصرة ، والمفكرون الذين كانت ومازالت لهم كتابات عن إعـــادة قراءة التراث - بوصفه أحد عوامل تجديد النهضة - حذفوا في بعض الأحيـــان ، ما يتعلق بالعلم لذا يوضح لنا هــذا النص : ( التاريـــخ الثقافي

العالمي فلا يرد له ذكر، بينما يحتل الفقه والفلسفة والكلام والشعر وغيرها مكان الصدارة) (4)، وفي الوقت نفسه فإن الاهتمام بالتراث لا يعني عدم الخروج من الدائرة ، أي : البعد عن كل تطـــور علمي وحضاري معاصر.

**المبحث الثانـــي ـ معنى نقد التراث العلمي:**

وعليـــه فإنه لا مناص لمجتمعنا العربي الإسلامـــي من أن يتجاوز أزمته الثقافية وأن يدخل مرة أخـــرى في عجلة التاريخ ، فلابد من نقد هذا التراث العلمي: ( يمكنه من خلق وعي ذاتي مستقل ، وثانيا من استعادة العقلانية النقدية الهادفة) (5)، والعقلانية التي نقصدها في بحثنا هذا هي حسب ما تطرقنا لها في السابق ولكن لغرض الايضاح هي عبارة عن ـ استراتيجية أو منهجيه ، حتى نستطيع التعامل مع الإنتاج الإنساني بصفة عامة والعلمي بصورة خاصة: ( أنه تراكم فكري لا يخص حضارة بعينها أو جنسا بعينه))(6).

ومن خلال ما سبق نقول بأن العقلانية النقدية ، هـــي : التحول من الأفكار إلى التطبيق ، أو بعبارة أخرى هو تحول النظرية العلمية من ما يسمى بفكر نظري إلى فاعلية التطبيق الواقعي حتى يمكن القول بأن تكون لها إثراء في ثقافتنا الإسلامية المعاصرة وهذا أيضا لا يتحقق إلا في دراسة جوانب معينة منها ما يأتي في المبحث الثالث.

**المبحث الثالث ـ التراث الإسلامـــي والتقدم العلمي المعاصر:**

للتراث الإسلامي أهمية في تكوين التراث والهوية العربية المعاصرة وكيفية تجذر وتشكل هذه الذلة بداخلنا وبالتالي يمثل التراث لنا القاعدة التي تنطلق منها وهذه القراءة هي في واقع الامر تتطلب منا استخدام البحث العلمي المعاصر ومستجداته في كل حين : " فالتراث لا تتجدد قيمه ولا تعلو مكانته إلا إذا كان موضعا للنظر العقلي والتحليل العملي" (7) ، وهناك أيضا من يؤكد لنا هذا القول في موضع آخر حين يقول: " شـــرط القراءة وعلة وجودها أن تختلف عن المحتوى أو النص التراثي الذي نقـــرأه ، أو نكتشف فيه ما لم يكتشفه بذاتـــه ، أو ما ينكشف فيه مـــن قبل" (8).

يفهم من النص السابق بأنه لابد من استخدام أدوات بحث جديدة حتى يتسنى لنا الفهم والتحليل والتنظير وهذا يعتبره الكثير من المفكرين من المطالب الأساسية فـــي: ( دراسة التراث الإسلامي، وفي إعادة تحريك فكرنا المعاصر) (9) ، ومن خلال النص السابق فإن استخدام المناهـــج الجديدة والحديثة هي التي تساعدنا في القراءة التجديدية لفكرنا المعاصر، والتراث الذي يقصده المفكرون هو التراث الذي يتسم بصفة

الاستمرارية ، أي : التراث الفعال الذي يحدد الســـلوك ونمتلكه وبهذا المعنى فهو: ( التراث الذي ينبغي أن نمتلكه امتلاكا علميا دقيقا يسمح بالتجاوز ووضع البديـــل) (10) ، هكذا يوضح لنا النص السابق، الربط بين التراث العلمي والتقدم العلمي المعاصر حتى ينتج لنا افهم ويكون إرثاً واضحاً للأجيال المتعاقبة من خلال ربطه بفكرنا المعاصر.

**المبحث الرابع ـ علاقة المفاهيم الفلسفية الإسلامية بالعلوم المعاصرة:**

من المفيد القول إن الفكر الإسلامـــي في بعض جوانبه يعد بمثابة الإشعاع ، أو الصـــدى للأفكار العلمية المعاصرة له ، وهذا يوضّـــح لنا ما قام به فلاســـفة الإسلام في استلهام نتائـــج العلم واحتوائها في إثـــراء منهاجهم الفلسفية ؛ ولكن للأسف الشديد بالرغم من وجود العديد من المفكرين المسلمين والعرب في حديثهم عن النهوض بالفكر العربي المعاصر لم يتسنـــى إلى الآن هذا النهوض ومن بين هؤلاء المفكر العربي محمد عابد الجابـــري الذي يرى أن : " المسلمين في هذا المجال متخلفون عن ركب الفكر العلمي تفكيرا وتقنية ، ومازالت الدراسات الفلسفية عندنا منشغله بالآراء الميتافيزيقية أكثر من اهتمامها بقضايا العلم والمعرفة والتقنية ، الشـــيء الذي انعكست آثاره على جامعاتنا ومناخنا الثقافي العام (11)، ومما لا شك فيه إن الدور الذي يعليه ويقوم به العلم في تغـــيّر المفاهيم الحضارية والثقافية ، وما يؤدّي هذا العلم من تغير في تصورات الانسان عن الكون ، وعالمنا الذي نعيش بداخله ، ولهذا يحتم علينا العلم بتقنياته المختلفة أن نستوعب من خلال تطوير ثقافتنا كافة تطـــوّرات العلوم وتقنياته المختلفة ، وهذا يتطلب منا أن نقـــدّم صياغة جديدة لفلسفتنا الإسلامية ، بأن نأخذ بعين الاعتبار الإجابة عن الأسئلة المختلفة التي تطرح من قبل حاضرنا ومستقبلنا.

**المبحث الخامس ـ أهميـــــة البحث العلمـــــي:**

إن البحث العلمي لا يمكن أن يزدهر في تطـــور المجتمع مالم تتوافر له شروط ، بعضها علمية معرفية وبعضها سياسية واقتصادية ومن أهم هذه الشـــروط (12):

1- الفهم الصحيح لمنزلة البحث العلمي في تطوير المجتمع والاعتراف بقيمته في ازدياد الثروات الطبيعية والاقتصادية.
2- تنشـئة العالم على الأخذ بناصية البحث العلمي في مجال تخصصه ، والسير فيه إلى نتائج يقيمها العلماء.
3- مساندة الدولة والمؤسسات الصناعيـة والزراعية للبحث العلمي، ومعاهد البحوث والباحثين ، من ناحية ، مع تنظيم الهيئات العلمية.
4- إنشـــاء مراكز التوثيق العلمي.

5- إجـــراء البحوث والدّراسات اللازمة حـــــول جدوى استخدام التقنية الجديدة وشروطها : كالحاسوب ، و أجهزة البرمجة ، وشبكة المعلومات .

**المبحث السادس ــ الحاجـــــة إلـــى تطوير التعليم الجامعـــــي:**

من الجدير بالاهتمام أن مسألة تطوير وتقدم العلم في المجتمعات العربية والإسلاميــة بحاجة إلى الارتباط الوثيق بين هذا التطور والعلم لأنه ليس من المعقول أن نحاول أن نواكب التقدم العلمي والتقني ، ولا زالت جامعاتنا بعيدة من خلال استخدام بعض المناهج التقليدية في الوقت التي أصبحت الثقافة العلمية والتطور التقني يدخل كل بيت ومدرسة وجامعة ، وأن يصبح الفهم مطلباُ ضروريا بدلا من التلقين والحفظ ، وهذا القول السالف الذكر يتطلب وجود بعض المبادئ والأسس وفي مقدمتها الآتي:

1- الاهتمام بالتراث العلمي وإخضاعه للنظر العقلي والتحليلي العلمي ، ونقله إلى عقول الطلاب المشوقة نقلا يتيح لهم الفهم (13).

2- الاهتمام بمواد تطبيق النتاج العلمي ـ بصورة مباشرة أو غير مباشرة على نمو المجتمع وتطوره فالعالم ـ معلم أو باحث ـ هو مواطن ، وكل مواطن لابد أن يستقر في كيانه الفكري والاجتماعي بضرورة الانتفاع بعلمه (14).

3- الاهتمام بضرورة اشتمال الدراسة الجامعية على منهج يكفل للطالب تربية علمية ومعرفية تجمع بين الثقافة النظرية والثقافة العلمية (15) .

ولكن هذا الفهم ينبغي أن يرتبط بالمحيط الثقافي العام ، فكلما زاد نصيب صاحب التخصص من الثقافة العامة زاد علمه في تخصصه. (16).

**الخاتمة :**

من خـــــلال هذه الدراسة قد ألمحت بهذه الرؤية إلى مفهوم العقلانية النقدية وعلاقتها بالتقدم الحضاري عند المسلمين والعرب وثمارها في ضوء هذا التقدم من أجل الوصول إلى تصـــور إسلامي عالمي معاصر ، يكون في مضامينه أكثر تفهما للواقع الثقافي المعاصر ، وأكثر فاعلية مع الحضارة العلمية المعاصرة ، حتى يتسنى للعرب وللمسلمين الاستمرار والتواصل في عصر العلم والتقنية الحديثة ، حتى يكون لديهم الاسهام الكبير على كافة المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية والتقنية في حضارتهم المستقبلية ، فربما يرى الباحث أن تكون هذه نقاط البداية تسهم في دفع عجلة التطور المطلوب ثم بعد ذلك تستكمل من قبل أصحاب الفكر الفلسفي الإسلامي .

## الهوامـــــــــش :

1- د. حسام الالوسي: مظاهر ونماذج من العقل والعقلانية في الفكر العربي الاسلامي ، (مقال ضمن كتاب: مكانة العقل في الفكر العربي ـ مركز دراسات الوحدة العربية . ط1 ، بيروت 1996 ، ص84.
2- عبدالحكيم أجهر: (العقل العلمي) ((مقال ضمن مجلة الفكر العربيـ العدد 55 الانماء العربي ، بيروت 1989م ، ص41.
3- د. معن زياد: الفلسفة العربية الحديثة والمعاصرة بين الابداع و الاتباع: ((مقال ضمن مجلة الفكر العربي -57)) معهد الانماء العربي، بيروت، 1989، ص 11 .
4- د. سالم يفوت: نحن والعلم ، دار الطليعة ، ط1 ، بيروت ، 1995 ، ص76.
5- د. هشام شرابي: النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين ، مركز دراسات الوحدة العربية ط1 ، بيروت 1995 ، ص15.
6- سالم يفوت: نحن والعلم ، مصدر سابق ، ص95.
7- د. إبراهيم بدران: حول مفاهيم العلم في العقلية العربية ،:(( مقال ضمن كتاب : الفلسفة العربية المعاصرة )) مركز دراسات الوحدة العربية ، ط1 ، بيروت ، 1988م ص237.
8- علي حرب: النص والحقيقة (نقد النص جـ1) المركز الثقافي العربي ط2 ، بيروت ، 1995م ، ص20-21.
9- جمال الدين العلوي: إشكالية تجديد الفكر الإسلامي (مقال ضمن كتاب تجديد الفكر الإسلامي) المركز الثقافي العربي ، ط1 ، المغرب ـ بيروت ، 1989م ، ص136.
10- المرجع السابق: ص138- 139.
11- د. محمد عابد الجابري: مدخل إلى فلسفة العلوم (العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي) مركز دراسات الوحدة العربية، ط4 ، بيروت، 1994، ص11.
12- د. فؤاد صروف: تطور الفكر العلمي في مائة سنة ( مقال ضمن كتاب: نشاط العرب العلمي في مائة سنة) هيئة الدراسات العربية في الجامعة الامريكية ، بيروت ، 1963م ص434 .
13- فؤاد صروف: تطور الفكر العلمي ، مرجع سابق ، ص428 .
14- المرجع السابق: ص43 .
15- المرجع السابق: ص431 .
16- محمد فتحي الشنيطي: أسس المنطق والمنهج العلمي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1970م ، ص156 .